عينان معصوبتان ...

قصة مصرية

بقلم محمود كامل المحامي

(ساعة مبكرة من ساعات الصباح . التليفون يدق دقات سريعة ثائرة في غرفة... هو ... فتاة شاب يتخذ منزلا مكونا من غرفتين وصور حوله الى « معمل » يقوم فيه ببحث تماثيله الجديدة. أما هي فهي طرف القاهرة الآخر . « فيلا » تحيط بها حديقة صغيرة في « الزيتون » أحدهما لا يرى الآخر لان مسافة بعيدة تفصل بينهما.)

هي — سعدت صباحاً

هو — سعدت صباحاً يا آنستي . . من أنت ؟

هي — أيهمك هذا ؟ هو — كيف لا يهمني ؟ ألا أعرف من يحدثني ؟

هي — (واحده)

هو — انا واثق من هذا : ان صوتك ليس من الخشونة بحيث يجعلني أشك في انك .. انك فتاة هي — هل بدأت ؟ هو — ماذا ؟

هي — هل بدأت تسخر ؟ هو — أتعرفين عني انني مغرم بالسخرية ؟

هي — يبدو ذلك من نظرتك هو — وكيف تعرفين ؟

هي — رأيتك هو — متى ؟

هي — أكثر من مرة هو — أين ؟

هي — في أكثر من مكان . هنا وفي الاسكندرية هو — ولكن . .

هي — ولكن ماذا ؟ هو — ولكن من أنت يا آنستي ؟

هي — أوه ! انك تشوه جمال حديثنا بهذا الالحاح

هو — أنا لا ألح . ان معرفة اسمك لا تهبني الى الحد الذي توهمين

هي — لو لم تكن مغروراً . . . .

هو — عجباً ! أليس من حقي ان أعرف من يحدثني في منزلي ؟

هي — ستعرف هو — متى ؟

هي — فيما بعد .. أترك هذا الآن . اني أريد ان أتعرف رأيك في أمر يهمني

هو — رأيي أنا ؟

هي — أجل هو — من أين جاءتك هذه الثقة بي ؟

هي — لست أدري . انهُ شعور قديم يعود الى اليوم الذي رأيت فيه أولَ تماثيلك الرخامية الصغيرة التي كنت تعرضها في سراي تجران ... ذلك التمثال الذي يمثل المرأة (التجربة) التي تحمل طفلها على كتفها . أتدري ماذا شعرت وأنا واقفة أمامه؟ هو — لا أستطيع ان أجزم

هي — شعرت انك تحمل هم تلك المرأة التي كانت الكآبة تبدو على قسماتها ، وهم كل امرأة تعسة في هذا العالم هو — انني أخاف من هذا المديح

هي — لا تخف ... بالعكس .. سترى بعد ان تعرفني ان هناك أشياء أخرى ستخاف منها هو — مثلاً ؟

هي — اني أعرف أنك لم تحب بعد .. الشيء الذي عليك ان تخافه اذا رأيتني هو أنك مسوق الى حبك الاول ! هو — لو لم تكوني مغرورة !

هي — لا تقلدني ! ولا تسرق كلماتي .. اني أعرف أنك بعد ان سمعت مديحي خيل اليك اني امرأة اعتادت ان تتملق الرجال . أنت واهم .. اني اعتدت على العكس ان أتلقى مديحهم . . اني أنال «نجاحاً» حيثما ذهبت ... هذا الصيف مثلاً ... لقد رأيتك أكثر من مرة في « جليم » مررت أمامي على بعد بضع خطوات . لا بدَّ انك رأيتني ولو أنك كنت تتعمد اخفاء عينيك بتلك « النظارة » ذات الزجاج الاسود ... لقد كنت أرشق وجه في ذلك الشاطىء المحتشد بالوجوه الرشيقة ... لا أذكر ان رجلاً رآني دون ان يغرقني في سيل من كلمات الثناء والاعجاب هو — ولم كل هذه « المحاضرة » ؟

هي — لان الكثيرين يخيَّل اليهم ان المرأة التي تبدأ رجلاً بمشاغلها « التليفونية » لا بد أن تكون دميمة هو — أنا لم اقل ذلك

هي — ولكنك ربما سمعت الآخرين يقولونهُ

هو — اعتدت ألاَّ أصدق كل ما يقال لي

هي — ستصدق ما قلتهُ لك الآن عن نفسي عند ما تراني

هو — اراك تكررين « عند ما تراني » . . كأنك توحين اليَّ ان أطلب رؤيتك ! هي — ألا تريد ؟

هو — دون أن أعرف من أنت ؟ هي — أجل هو — لا أظن

هي — أنت صريح . . . لا . . . اكثر من ذلك . جريء هو — هذا عيبي

هي — أتراهُ عيباً . اني لذلك أتحدث اليك هو — هأنذا استمع اليك

هي — أترى انك طيب القلب دون ان تعرف هو — يضحكني هذا الوصف

هي — أؤكد لك أنك تظن في نفسك القسوة . . ولذا تسير دائماً عابس الوجه مقطب الجبين . . لقد قلت لك اني رأيتك اكثر من مرة . أتدري ؟ لقد خيل اليَّ ذات مرة بعد أن رأيتك أن أصيح : « يا بني ! »

هو — ولمَ عدلت ؟

هي — لاني كنت اعتزم ان اتحدث اليك كما افعل الآن . ولم اكن أود ان استلفت نظرك اليَّ . . .

هو — قلت لك اني استمع اليك هي — هل أنت على عجل ؟

هو — لا . . اني سعيد اذ أجد منك هذه الثقة

هي — صوتك يوحي بي . . ان الموضوع الذي سأحدثك عنهُ له اوثق الصلة بحياتي كلها . . التي تحدث اليك الآن ليست (آسة) كما خيل اليك . أنها زوجة . . . في الرابعة والعشرين . . . جميلة كما قلت . تلقت اكبر قسط من التعليم يمكن ان تتلقاه فتاة مصرية . لها ميل طبيعي الى كل ما هو جميل ونقي . . تتذوق الصورة الفنية الموفقة . وتصغي الى النغمة الموسيقية حينما كانت هذه النغمة . . . . في خرير الماء المتساقط من أفواه « الساقية » التي تجريها بقرتان معصوبتا العينين وسط حقل « العزبة » . أو المرتطم بصخور الجزء النائي البعيد من شاطىء « جليم » حيث يأبى المصطافون والمصطافات أن يذهبوا لانهم يحبون — لسخفهم — الضجة ويأنفون من الهدوء . أو في ارتجاف القطرات المنهمرة على

زجاج غرفتها المقفلة في ليلة ممطرة من ليالي الشتاء . وتقف طويلاً أمام التماثيل التي تعبر عن عاطفة أو فكرة انسانية . يدق قلبها على غيرها . . . وهي معروفة بين زميلاتها بسمو ذوقها في اختيار الثياب . . . انه ذوق « أصيل » بشهادة الجميع . . . كما انها تختلف عن الكثيرات من المصريات في أنها تستيقظ من نومها مبكرة لكي تسرع أحياناً بارتداء ثوب أنيق من ثياب « الغرفة » وأحياناً أخرى بارتداء « بيجامة » افرغت في (حياكتها) كل ذلك الذوق الذي حدثتك عنهُ . . . كما أنها لا تذكر أنها قابلت زوجها أو أحداً من أهله . في أية ساعة من ساعات النهار الا وهي معطرة بالعطر الذي جعلتهُ يحبهُ كما تحبهُ هي لانهُ عطر شاعري يرتفع بالروح الى جو أسمى من الجو الذي يعيش فيه الناس . هذه هي المرأة التي تتحدث اليك الآن لتقول لك أنها رغم ذلك كله لمسة التعاسة كلها بل أنها تكاد تكون أتعس نساء الارض هو — وكيف ؟

هي — لانها تبينت أن زوجها . الرجل الذي أحبته دون سائر الرجال والذي وهبت له أعز ما تملك .. قلبها ... قد خانها

هو — خانها ! هي — أجل . خانها مع فتاة أخرى هو — ولم ؟

هي — وهل هناك أسباب يستند اليها الرجال عادةً قبل البدء بخيانة النساء اللاتي يحببنهم ؟

وسادت فترة صمت طويلة . وخيل اليه ان صوت نحيب بعيد تحمله أسلاك التلفون الى أذنه . وأحس بشعور غريب يستولي عليه نحو تلك المجهولة التي تتحدث اليه ... شعور من الرحمة والرقة والدعة والحنان

هو — وماذا تريدين مني يا سيدتي ؟

هي — لست أدري . اني أبكي الآن وأنا مرتاحة .. ألا يدهشك هذا ! حتى البكاء لا استطيعه امام الناس . انني اعتدت ان أبدو امامهم متظاهرة بالفرح والسعادة . ان من الشاق العسير على شابة مثلي في الرابعة والعشرين ان تثير شماتة الناس بها .. لذلك أتظاهر بالضحك

وقلبي يدمي ... أقسم لك اني أحياناً استغرق في الضحك لأنه الاسباب حتى يتعب صدري ... لانني أكون إذ ذاك تربسة أزمة شديدة من أزمات السخط على هذا الحظ الذي نكبني وأنا بعد في سن لا يحتمل أحوال النكبات ... لم أرتكب ذنباً . انني لم أسيء قط الى أحد . لا أذكر اني اقترفت اثماً استحق ان أجازى عليه هذا الجزاء

هو — أنك اذكى من ان تضعي هذا الضعف يا سيدتي . من يدري ؟ ربما مهدت هذه العاصفة التي اجتاحت منزلك لحياة أرغد وأسعد . اني أذكر قولاً لألفونس دوديه أجراه على لسان احدى بطلات قصته الخالدة «ساقو» هل قرأتها ؟

هي — أجل . . وأكاد أحفظها عن ظهر قلب . . ما هو ؟

هو — « اذا أردت ان تحتفظي بالرجل جيداً فاتركي له شيئاً من الحرية والظاهري بأنك لم تفطني الى زلاته »

هي — أرجوك ألا تنصحني على الوتيرة التي ينصحني بها الآخرون . انني لم أتحدث اليك لأتلقى هذه العظات التي أعرفها قبل ان أسمعها منك

هو — آسف يا سيدتي اذ جعلتك تورين فجأة بسبب هذه النصيحة . هل لي ان اسألك مرة ثانية « ماذا تريدين مني أذن ؟ »

هي — أن تدعني أبكي هو — فقط ؟

هي — أجل . دعني أبكي فقط . لانني محرومة من ان أبكي أمام الناس المتصلين بي . القريبين مني . ان والدتي نصحتني كما نصحت عجوز قصة « ساقو » الصغيرة ابرين ان اغض عيني عن خيانة زوجي واستدلت على ذلك بأن أبي كان في شبابه قد اعتاد السهر خارج المنزل الى ساعة متأخرة من الليل وذاع عنه انه اتصل باحدى الراقصات . فلما تركته مدة طويلة انتهى بأن تاب الى رشده . والتفت الى اسرته . . أنا لا افهم هذا النوع من النصائح لانني لا أطلب من الحياة الا ان اعيش هذه الأعوام القليلة في الجو الذي كنت أحلم به في طفولتي ... هل يزعجك ان ابكي هكذا بين يديك

بضع دقائق في كل يوم ؟ هو — كلاَّ ... ولكن ؟

هي — ولكن ماذا ... أكاد أثق اني أزعجتك

هو — لا ولكن لِمَ اخترتني لهذا الموقف الأليم ؟ ان اقف مكتوف الذراعين امام بدة شابة مثلك تبكي بحرارة

هي — ألا تعرف لِمَ ؟ هو — ربما ... ولكنني اريد ان اسمع منك

هي — آه لو أنك قلت من هذا الاعتزال بنفسك .. كنت أظن اني أصلب رأياً من أن أضعف امام رجل فاعترف له . وفي أول مرة اتحدث اليه بأمر كهذا ؟ هو — وما هو ؟

هي — منذ رأيتك لأول مرة شعرت بأنك الرجل الوحيد الذي يمكن أن أثق به . اني أعرف نفسي عنيدة وعصبية . ولكن لست أدري ماذا دهاني بعد أن تحدثت اليك .. ألا تشاركني نفس الاحساس ؟ اني أحس .... أحس بأني مسوقة اليك معصوبة العينين . مادة الذراعين ومع ذلك فاني أسير على هدى كاني أعرف أين تقطن على أن أحداً لم يخبرني بمكانك ولو سألتني عنهُ الآن لما استطعت أن أصفهُ لك . اني أتحدث اليك الآن وأنا أضع يدي على عيني كعصابة وأتخيل كل شيء يحيط بك . قل لي . هل أغلقت نوافذ غرفتك لتتقي حر هذا اليوم؟

هو — أجل ... ولكنني أشكو من ألم في عيني اليسرى هي — لِمَ ؟

هو — كنت قادماً بالسيارة من الاسكندرية فأصاب تلك العين هواء بارد أثناء الطريق

هي — أوه ! انك تهمل نفسك كطفل مدلل . أعندك بعض أقراص الاسبرين ؟

هو — أجل ... في درج مكتبي هي — وكوب ماء ؟

هو — اتحدث اليك وأنا أسعى بها هي — تناول هذا القرص

هو — هأنذا أفعل هي — سترى .. أنك ستستريح بعد قليل

هو — ستسخرين مني اذا قلت لك اني أشكو من هذا الألم الشديد منذ أمس وأقراص « الاسبرين » عندي دون أن أذكر أنها هنا

هي — الى ان ذكرتك انا .. اني أكاد أعرف كل شيء عنك دون ان

أعيش معك . لقد كنت اقول لك اني لو عصبوا عيني لأقبلت اليك .. ووقفت امام باب منزلك . ثم فتحته . وصعدت السلم درجة درجة . ثم تقدمت على أطراف أصابعي ووقفت خلفك وأنت تعمل في احدى آلتك ..

هو — ولمَ هذه العصابة على عينيك؟

هي — لست ادري ! ألم أحدثك الآن عن تلك البقرة التي تربط الى ساقية القرية معصوبة العينين ولو انهم رضوا تلك العصابة ما استطاعت ان تدور حول هذا القدر المحتوم شهوراً وأعواماً .. أنا أيضاً أعرف انني ارتكب خطأ اذ أسعى اليك .. ولكنني أحس بأني مندفعة اليك .. قلت لك ان شيئاً يدفعني نحوك وأنا كما صارحتك عنيدة عصية . ولو أنفقت وفتحت عيني لثرت على نفسي وعليك . ولذا أفضل أن تعصب عيناي لكي أدور حولك كما لو كنت أدور حول قدر محتوم دون ان أتضجر او أثور ...

هو — مدهشة

هي — كنت مدهشة . ولكنني أحس الآن أني كغيري من النساء يتمالين على جميع الرجال، ويخضعن لرجل واحد ..

هو — ماذا تريدين الآن ؟

هي — أراك لا تعلق على كلماتي الأخيرة كأنك توافق على أنك أخضعتني !

هو — ألا أستطيع ان أعرف ماذا ترتدين الآن ؟

هي — (بيجامة) وردية اللون

هو — انني لا أحب لون الورد في ثياب المنزل

هي — .. انتظر قليلاً .. انهم ينادونني هنا « وبعد قليل عادت اليه »

هو — فيم كانوا يطلبونك ؟

هي — لا شيء .. لقد أبدلت (البيجامة) الحمراء بثوب أزرق

هو — انهُ لون مريح

هي — ما هو الازرق في غرفتك ؟

هو — كل شيء فيها .. جدرانها ... بساطها ... غطاء سعاجها وستر النوافذ التي انتهى نحتها

هي — ان هذه الستر الزرقاء قد تراكم عليها تراب خفيف ؟

هو — أجل . شيء أشكو منهُ ولاسبيل الى رفعه

هي — اني أميل الى الاعتقاد ان حياتك مجردة من امرأة تبعث فيها شيئاً من الحنان امرأة تفهمك وتعينك على تحقيق اطماعك في المجد الذي تنشده

هو — أتحدث اليك الآن والقطة تأكل أحد جواربي على عتبة الباب . . . وقميص (الاسموكنج) ساق أمامي دون كي كما تركته في فجر يوم رأس السنة . أي منذ أكثر من ثمانية شهور . . . والصكيوت يرسم أشكالاً هندسية تجيبة على بعض دواوين الشعر التي تضمها مكتبتي

هي — تخيلني الآن وقد أقبلت اليك . في غرفتك . أزيل كل ما تشكو منه وأحل معي باقة من الورد الابيض أضعها في آنية خزفية على مكتبك الذي يتوسط الغرفة . ثم أجلس في هذا الثوب الازرق الذي تحبه لأقضي الوقت في رسم صورة خفية لاحدى تماثيلك التي أحس أنك تحب بها وتفضلها على غيرها حتى تعود من عملك في الخارج . فأستقبلك عند الباب . . . يستهويني العطر الذي تحبه . . . أتناول الكتب والمجلات التي تحملها . أحملها عنك وأضعها مرتبة على المكتب الذي يزينه كأنه كان ينتظرها ! ثم أقدم لك الطعام الذي أكون قد أشرفت على اعداده في الصباح . . . ثلاث صحاف فقط . . . حساء ساخن وقطعة من اللحم المشوي . مع بعض الخضروات وصنف واحد من الفاكهة . هذا يكفي لا تكن « فجاناً » ! ان لديك استعداداً خطراً للسمن . ثم قدح من القهوة أعدها أنا بنفسي وأقدمها اليك بالخادة كأنك ملك ثم أطلق ضحكة ساخرة وأنت تتلقى مني القهوة هادئاً وقد خيل اليك اني جادة اذ أحمي أمامك . . . وبعد ذلك أقفز برشاقة فأجلس خلف المكتب لاقرأ لك ما لم تستطع قراءته في الصباح . الموضوعات التي تهمك . . الى ان تمل أنت من الاستماع . . . فأدنو منك وأجذبك كطفل الى « المقعد الطويل » فأجلسك عليه وأقول لك هامسة في صوت يرتجف حبًّا « نم هنا يا طفلي الكبير . انك في حاجة الى الراحة . . . سأوقظك في الوقت المناسب لكي تعمل في التمثال الذي بدأته امس . اني اريد ان ارسم لهُ لوحة « خمرية » ملؤني زهواً ان تكون

تمانيك وحي صوري .. سنشتغل في المساء ثلاث ساعات سأكون الى جانبك . أنت تعمل في التمثال الجديد وأنا أسجل خطوط التمثال الذي تم صنعه على اللوحة التي أرسمها ولكنني سأتركك في الدقائق الاخيرة لكي أرتدي ثيابي وأصحبك الى الخارج فنتصيد بالسيارة الى مكان نائي بعيد . ثم نترك السيارة ونسير متلاصقين مسافة طويلة . ثم الآن .. لا تني عزفت اليوم على قصيدة شعر مدهشة سأقرأها لك على ضوء هذا المصباح الازرق بعد عودتنا في المساء الى المنزل .. سأغضب لو اني رأيتك تتثاءب وأنا أقرأ لك شعري الحبيب »

هو — ماذا دهاني .. أن أناملي أضاءت المصباح الازرق دون أن أشعر اني أراك الى جانبي هنا .. تتحركين في غرفتي .. في هذه الغرفة اقرئي لي الشعر الذي وعدتني به . هأنذا قد أضأت المصباح الازرق

هي — انتظر حتى احكم اغلاق النوافذ . اني لا اريد ان نحس بالعالم في الخارج يجب ان تعدم اصوات الناس والعجلات . اني أرى انك احسن حالاً بكثير الآن .. كما اني سعيدة .. انا أسعد اثنين في هذا العالم .. أليس كذلك ؟ ان العالم في هذه الغرفة

هو — العالم في هذه الغرفة ! لقد سمعت هذه الكلمات قبل الآن

هي — وأنا سمعتها معك هو — أين ؟

هي — في السينما .. في تلك القصة التي رأيناها معاً عن الثورة الارلندية

هو — عند ما اختلى العاشقان للمرة الأولى هي — أجل كما اختلينا الآن

هو — ولكن من أنت ؟

هي — تلك التي كانت جالسة الى جانبك تماماً .. في المقصورة الملاصقة لك

هو — واسمك ؟ هي — اخبرتك اني زوجة ...

هو — آه ! — لقد نسيت .. اسمحي لي أن أتركك الآن لأفتح النوافذ .. ان القطة قد شبعت من أكل الجوز وهي تموء لانها تلتمس منفذاً للخروج الى العالم فلا تجد .. ان من حقها ان ترى العالم الذي انقطعنا عنه نحن الاثنان هذه الساعة لنعيش هنا . وحدنا